## (٩)

## معرفة الله

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: جَاءَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ إلى النَّبِيِّ ﷺ، وقَالُوا: «**جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ، وَلِنَسْأَلَكَ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الأَمْرِ، مَا كَانَ؟ قَالَ: كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ**». رواه البخاريُّ[(١)].

**إنَّ من أعظم الفقه للقلوب**: معرفتَها بربِّها، وعظمته وجلاله، وكبريائه وكماله، وشمول علمه، ونفوذ مشيئته، وكمال قدرته، وأنَّه الرَّبُّ لا شريك له، والخالق لا ندَّ له، والمَلِك لا نظير له، المُتَصَرِّف في الخلق عطاءً ومنعًا، وخفضًا ورفعًا، وقبضًا وبسطًا، وعزًّا وذُلًّا، وحياةً وموتًا. يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطَّلاق:١٢].

**والواجب على كُلِّ مسلم**: أن يعرف ربَّه سبحانه بالعظمة والجلال، والكمال والكبرياء، وسعة العلم والاطِّلاع، وعموم القدرة وشمولها، ونفوذ المشيئة، وأنَّه ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأن يعرفه سبحانه بعلمه الشَّامل المحيط؛ فلا يعزب عن علمه مثقال ذرَّة في الأرض ولا في السَّماء،

---

(١) رواه البخاريُّ (٧٤١٨).

وبالإرادة الكاملة؛ فلا راد لحكمه ولا معقِّب لقضائه، وبنفوذ مشيئته؛ فما شاء الله كان في الوقت الَّذِي يشاء على الوجه الَّذِي يشاء، وبقدرته على كُلِّ شيء، وأنَّه جَلَّوَعَلَا لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وبالحكمة البالغة؛ فلم يخلق الخلق عبثًا ولا أوجدهم سدًى وهملًا.

فمَن عرف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ معرفةً صحيحة مُسْتَمَدَّة من كتاب الله وسُنَّة نبيِّه ﷺ؛ عظُمت صلته بالله، وحسُن إقباله عليه جلَّ في علاه.

روى المروزيُّ في كتابه تعظيم الصَّلاة عن أحمد بن أبي الحواريِّ، قال: سمعت أحمد بن عاصم الإنطاكيَّ، يقول: «مَن كان بالله أعرف كان مِنَ الله أخوف». قال أحمد: صدق والله[(١)].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليست حاجة الأرواح قطُّ إلى شيء؛ أعظم منها إلى: معرفة باريها وفاطرها، ومحبَّته، وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه والزُّلفى عنده. ولا سبيل إلى هذا إلَّا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكُلَّما كان العبد بها أعلم؛ كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب. وكُلَّما كان لها أنكر؛ كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد. والله يُنْزِل العبد من نفسه حيث يُنْزِله العبد من نفسه...»[(٢)].

---

(١) رواه المروزيُّ في تعظيم قدر الصَّلاة (٧٨٦).

(٢) الكافية الشَّافية (١/ ٩).

وفي القرآن الكريم ما يزيد على الأربعمائة آية، فيها ربط الأمور كُلِّها بمشيئة الله جَلَّوَعَلَا، وأنَّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا معطي لما منع ولا مانع لما أعطى، ولا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض، ولا هادي لمَن أضلَّ ولا مُضِلَّ لمَن هدى، ولا مباعد لمَن قرَّب ولا مقرِّب لمَن باعد.

**الخلْق خلْقُه والأمر أمْره:** يُعْطِي ويَمْنَع، ويَخْفِضُ ويَرْفَع، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُحْيِي ويُمِيت، ويَهْدِي ويُضِلُّ، له الأمر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

**والهداية:** أمرها بيد الله تَبَارَكَوَتَعَالَى، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السَّجدة:١٣]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، ويقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النُّور:٤٦].

**والفضل كُلُّه والرِّزق:** بيد الله، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢٩]، وقال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النُّور:٣٨]، وقال الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ [الرعد:٢٦].

**والتَّوبة بيد الله:** فمَن شاء الله شرح صدره لها، ومنَّ عليه بها؛ يقول الله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ﴾ [التَّوبة:١٥].

**والصَّلاح وزكاء القلوب واستقامتها على طاعة الله؛** أمرٌ بيد الله جلَّ في علاه، قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النِّساء:٤٩]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النُّور:٢١].

**والملك كُلُّه بيد الله؛** يُؤْتِيه مَن يشاء، ويَنْزِعه مِمَّن يشاء، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران:٢٦-٢٧].

**كذلك صور العباد؛** من أسمر وأحمر، وطويلٍ أو قصير، وجميلٍ أو ذميم، أو غير ذلك. كُلُّ ذلك وفق مشيئته تبارك تعالى؛ ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [آل عمران:٦].

**كذلك التَّناسل ووجود الذُّرِّيَّة؛** فمِن النَّاس مَن له بنين، ومنهم مَن له بنات، ومنهم مَن له بنين وبنات، ومنهم مَن هو عقيم، كُلُّ ذلك بمشيئته تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ [الشورى:٤٩-٥٠].

إلى غير ذلك مِنَ الآيات البيِّنات، والدَّلائل الظَّاهرات على كمال قدرة الرَّبِّ جلَّ في علاه، ونفوذ مشيئته، وأنَّ الأمر أمره، والملك ملكه، والخلق خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ عطاءً ومنعًا، خفضًا ورفعًا، قبضًا وبسطًا، عِزًّا وذُلًّا، حياةً وموتًا، صحَّةً ومرضًا، الأمر كُلُّه بيد الله وطوْع تدبيره جلَّ في علاه.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعِقْد هذا: أن يشهد قلبك الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مستويًا على عرشه، متكلِّمًا بأمره ونهيه، بصيرًا بحركات العالم: عُلْوِيِّه وسُفْلِيِّه، وأشخاصه وذواته. سميعًا لأصواتهم، رقيبًا على ضمائرهم وأسرارهم، وأمر الممالك تحت تدبيره، نازل من عنده وصاعد إليه، وأملاكه بين يديه، تَنْفُذ أوامره في أقطار الممالك، موصوفًا بصفات الكمال، منعوتًا بنعوت الجلال، مُنَزَّهًا عَنِ العيوب والنَّقائص والمثال، هو كما وصف نفسه في كتابه، وفوق ما يصفه به خلقه، حيٌّ لا يموت، قيُّوم لا ينام، عليم لا يخفى عليه مثقال ذَرَّة في السَّموات ولا في الأرض، بصير يرى دبيب النَّملة السَّوداء على الصَّخرة الصَّمَّاء في اللَّيلة الظَّلماء، سميع يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللُّغات على تفنُّن الحاجات، تمَّت كلماته صدقًا وعدلًا، وجلَّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شَبَهًا ومِثْلًا، وتعالت ذاته أن تُشْبه شيئًا مِنَ الذَّوات أصلًا، ووسعت الخليقة أفعاله: عدلًا، وحكمةً، ورحمةً، وإحسانًا، وفضلًا.

له الخلق والأمر، وله النِّعمة والفضل، وله الملك والحمد، وله الثَّناء

والمجد، أوَّل ليس قبله شيء، آخر ليس بعده شيء، ظاهر ليس فوقه شيء، باطن ليس دونه شيء، أسماؤه كُلُّها أسماء: مدح، وحمد، وثناء، وتمجيد. ولذلك كانت حسنى، وصفاته كلُّها صفات كمال، ونعوته كلُّها نعوت جلال، وأفعاله كلُّها: حكمة، ورحمة، ومصلحة، وعدل.

كُلُّ شيء من مخلوقاته دالٌّ عليه، ومرشد لمَن رآه بعين البصيرة إليه، لم يخلق السَّموات والأرض وما بينهما باطلًا، ولا ترك الإنسان سُدًى عاطلًا، بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته، وأسبغ عليهم نعمه؛ ليتوَسَّلوا بشكرها إلى زيادة كرامته، تعَرَّف إلى عباده بأنواع التَّعرُّفات، وصرف لهم الآيات، ونوَّع لهم الدَّلالات، ودعاهم إلى محبَّته من جميع الأبواب، ومدَّ بينه وبينهم من عهده أقوى الأسباب، فأتمَّ عليهم نعمه السَّابغة، وأقام عليهم حُجَّته البالغة، أفاض عليهم النِّعمة، وكتب على نفسه الرَّحمة، وضمَّن الكتاب الَّذِي كتبه أنَّ رحمته تغلب غضبه»[(١)].

وهذه العقيدة العظيمة إذا ثبتت في القلوب؛ تحقَّقت آثارها العظيمة في العبد: استقامةً على طاعة الله، وحُسن توَكُّلٍ على الله جَلَّوَعَلَا، ودوام إلحاحٍ عليه بالدُّعاء وسؤال الثَّبات والتَّوفيق، وحُسن إقبال على الله بالعبادة، وبُعدًا عَنِ العُجْب والاغترار، ورضًا بالقضاء، وصبرًا على ما قَدَّره الله جَلَّوَعَلَا

(١) مدارج السَّالكين (١/ ١٩٢).

وقضاه، وبُعدًا عَنِ الجزع والتَّسخُّط، إلى غير ذلك من الآثار الإيمانيَّة والعوائد الحميدة الَّتِي تعود على العبد بكل خير وفضيلة ورفعة في دنياه وأخراه.

روى البخاريُّ ومسلم في صحيحيها؛ عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ، هِيَ كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟**» قُلْتُ: «بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ»، قَالَ: «**قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»(١).

وروى الإمام أحمد في المسند؛ عن قيس بن سعد بن عُبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال له: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، قُلْتُ: بَلَى -يا رسول الله- قَالَ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ**»(٢).

وفي المسند من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «**أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ؛ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ**»(٣).

وفي المستدرك للحاكم، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٢) رواه أحمد (١٥٤٨٠)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة تحت حديث (١٥٢٨).

(٣) رواه أحمد (٨٤٠٦)، وصحَّحه الألبانِيُّ في السِّلسلة الصَّحيحة تحت حديث (١٥٢٨).

له: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ، مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ؟ تقول: لَا حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَيَقُولُ اللهُ** عَزَّوَجَلَّ: **أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**»(١).

وفي قول الله تعالى في حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ المُتَقَدِّم: «**أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**». ما يُبيِّن لنا معنى هذه الكلمة العظيمة؛ فهي كلمةُ إسلامٍ واستسلامٍ، وتفويضٍ وتوكُّلٍ على الملِك العلَّام، كلمةُ إيمانٍ بالقضاءِ والقدرِ، وأنَّ الأمورَ كلَّها بيدِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وأنَّ المخلوقاتِ جميعَها طَوعُ تدبيرِه وتسخيرِه وقضائِه وقدرِه، فما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العلِيِّ العظيم.

فهي كلمةُ التجاءٍ واستعانةٍ وتوكُّل على الله وإقرارٍ مِنَ العبد بضَعفِه وفَقرِه واحتياجِه إلى الله، في كُلِّ نفَسٍ ولحظةٍ وطرفةِ عينٍ، وأنَّه لا غنى له عن ربِّه، في أيِّ شأنٍ من شؤونه أو أمرٍ من أموره.

**ومعناها:** لا تحوُّل من كفرٍ إلى إيمان، ومن عصيانٍ إلى طاعة، ومن فقرٍ إلى غنى، ومن ضَعفٍ إلى قُوَّة، ومن نقصانٍ إلى زيادةٍ وتمامٍ؛ إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ. ولا قوَّةَ عند العبد على القيام بأيِّ شأنٍ من شؤونه، أو أمرٍ من أموره، أو تحقيق أيِّ هدفٍ من أهدافه؛ إلَّا بالله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن

(١) رواه الحاكم في المستدرك (٥٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في صحيح الجامع (٢٦١٤).

يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩-٣١]؛ فالأمور كُلُّها بيد الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر:٢].

فالعبد فقيرٌ إلى الله جَلَّوَعَلَا من كُلِّ وجه، والله عَزَّوَجَلَّ غنيٌّ عَنِ العباد وعن أعمالهم من كُلِّ وجه، وهو القائل جلَّ في علاه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ [فاطر:١٥-١٧].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: "يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى اللّه من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم [بها]، لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.

فقراء إليه، في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك، لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه، لم يتعلموا، ولولا توفيقه، لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها".

اللَّهُمَّ يا ربَّ العالمين زكِّ قلوبنا، وقوِّ إيماننا، وأصلح أعمالنا ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، تَعْلَم عجزنا وفقرنا وضعفنا وقِلَّة حيلتنا، وأنَّه لا حَوْل لنا ولا قُوَّة إلَّا بك، اللَّهُمَّ اهدنا جميعًا إليك صراطًا مستقيمًا، وأصلح لنا شأننا كُلَّه، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.